اكتشاف مستوطنة من العصر العتيق بشرق الدلتا

أ.د. محمد إبراهيم بكر*

مقدمة :

علي بعد حوالي خمسة كيلومترات إلي الجنوب الغربي من مدينة كفر صقر مركز الإبراهيمية محافظة الشرقية وإلي الشمال من كفور (أولاد) نجم بحوالي ثلاثة كيلومترات تقع عزبة التل : وهي قرية حديثة العمر نشأت كما قامت مثيلاتها مثل هربيط ،تل الفوزية ،وأبو ياسين ،وطوخ القراموس علي حساب منطقة أثرية كانت في يوم من الأيام مترامية الأطراف ،تقلصت تدريجياً علي أيدي أهالي كل من عزبة التل وكفور نجم وغيرهم ،الذين مارسوا في المنطقة الأثرية كل أنواع التعدي والإيذاء ،واعتبروها ملكاً خاصاً لهم،ينقلون منها الأتربة،(السباخ) ليسمدوا أراضيهم ،ويستخرجوا منها القطع الأثرية يبيعونها لتجار الآثار ،الذي يمرون عليهم بانتظام ليشتروا ما تجمع لدي الأهالي من قطع الآثار الثمينة بأبخس الأسعار،أما القطع الذهبية فمصيرها مباشرة إلي "الصاغة" حيث تصهر لتختفي معالم الجريمة وتضيع قيمتها الأثرية والعلمية إلي الأبد وكنتيجة لاخلاء أطراف التل من الأتربة تباعاً بهذه الكيفية تفقد وتضم مساحات منة كل عام إلي الأراضي المزروعة من حوله إلي ملكية الأهالي بالاحتيال والسرقة وتضيع إلي الأبد معالم أثرية تحتوي علي مصادر تاريخية قيمة ،فلم يتبق من التل الأثري سوي مساحة صغيرة ،قطعها طريقان ترابيان إلي ثلاثة أجزاء :

وصف الموقع الأثري :

القسم الأكبر (أ) جنوب شرقي عزبة التل ومساحته سبعة أفدنه بارتفاع نصف متر إلي متر ونصف عن مستوى الأرض المزروعة ومحاط بالأراضي الزراعية والقسم الثاني يفصله طريق ترابي عن القسم الأول وتبلغ مساحته أربعة أفدنه بارتفاع من 2.5 إلي 4 أمتار ،ومحاط بالأراضي الزراعية ،ويفصله عن القسم الثالث الطريق الذي يصل ما بين كفر صقر في الشمال إلي الخضرية في الجنوب وهذا القسم الأخير مساحته ثلث فدان ويقع إلي الشرق من القسم الثاني.
والتل الأثري بأقسامه الثلاثة يعرف في المراجع الأثرية تحت اسم تل كفور نجم الشاطئ الغربي لفرع النيل القديم التانيتي ،ويعرف حالياً ببحر مويس .وتل نجم كفور أو عزبة التل موضوع هذا البحث يقع بالقرب منة عدة مناطق أثرية كل منها يبدأ بكلمة تل :مثل تل بسطة عاصمة الإقليم 18 وهربيط عاصمة الإقليم تل الفوزية الذي اختفي تماماً تحت الأراضي الزراعية ،وتل أبو ياسين وتل طوخ القراموس ،ويشير هذا التوزيع للمواقع الحضارية القديمة (التلال الأثرية) علي أرض هذه المنطقة أنها كانت عامرة بالنشاط السكاني منذ أقدم العصور ،ربما لوقوعها علي طريق رئيسي يصل ما بين النيل والبحر المتوسط ومنطقة غرب آسيا ،وأقاليم شرق الدلتا بوجه عام كانت عامرة بالمراكز الحضارية علي مر العصور ،وموطنا لعدد كبير من الأقاليم المصرية (حوالي عشرة منها البلامون ،وتانيس (صان الحجر) ومنديس تل الربع وتل بسطه وكان بعضها تمتد إلي أرض سيناء مع فروع النيل الشرقية.
بداية الاهتمام بالتل : بدأ الاهتمام بتل كفور نجم من جانب المختصين بعد الحفائر التي أجراها د. اسكندر أسعد سنة 1961 عندما ظهرت شواهد أثرية عديدة تؤكد نسبة الموقع الأثري إلي العصر العتيق عصر الأسرتين الأولي والثانية،وثبت أثرية المكان .
وفي سنة 1978 نجحت محاولات اغتصاب 1/8 فدان من القسم الثالث الصغير المساحة بأساليب بيروقراطية بالتحايل علي القانون .

* أستاذ الحضارة والآثار المصرية - عميد كلية الآداب الأسبق - جامعة الزقازيق.

ونتيجة لكل ذلك تطلعت الهيئات العلمية لعمل بعض الدراسات المساحية علي تل كفور نجم تمهيداً للإعداد لإجراء حفائر مثل جامعة ميونخ وجامعة لفربول .

حفائر جامعة الزقازيق :

وفي نفس الوقت قام فريق جامعة الزقازيق تحت إشراف د. محمد إبراهيم بكر مؤسس المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم بأعمال المسح الأثري وإعداد الدراسات التمهيدية الشاملة لإجراء حفائر علمية في تل كفور نجم وشرع فريق العمل في إجراء الحفائر في 15 إبريل 1984 في موقع التل (A) وفي أقرب مكان منه لمباني قرية التل وإلي الشرقي منها،وتم اختيار موعد منتصف أبريل إلي منتصف مايو حيث مجاري المياه المجاورة شبه حافة وهو وقت التحاريق أو تنظيف قنوات الري وحيث الحقول المجاورة تتأهب الحصاد ،قبل عمليات الري بطريقة غمر الأراضي بالمياه التي تتسبب في رفع مستوى المياه الجوفية وتعيق إجراء الحفر . ومع ذلك فقد قابلتنا مشكلة اقتراب المياه الجوفية من سطح الأرض مما اضطرنا إلي استعمال ماكينات شفط المياه والتخلص منها باستمرار ،لنتمكن من استئناف العمل في تلك الظروف الصعبة.

قامت بعثة حفائر جامعة الزقازيق بالعمل في موقع آثار عزبة التل في القسم الأكبر (A) منه لأربع مواسم قصيرة أعوام 1984 15 أبريل – 17 مايو ، 1985 ،1988 (21 مارس – 9 أبريل) ،1990 (20 فبراير – 16 مارس) بمساعدة د.محمد عادل عبد المنعم ،د. عبد العزيز آمين ، د. محمد الشحات ، د. محمد حمدي (أعضاء هيئة التدريس بالمعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم).

أسفرت عن اكتشاف أجزاء من منطقة سكنية من عصر ما قبل الأسرات المبكر ،وجبانة من 100 مقبرة معظم محتوياتها سليمة .

أهم النتائج :

في الموسم الأول 1984 تم الحفر في مربعات بلغت مساحتها 900 متر مربع ، في المستوى الأعلى ،الذي يعود إلي بداية عصر الأسرات المبكر ،في جبانة من الأسرة الأولي،وكشف عن ستين مقبرة بيانها كالتالي :

1- حفرة مبطنة بالطوب اللبن ومقسمة قسمين ، القسم الأول يحتوي علي دفنه صاحب المقبرة داخل صندوق أو تابوت من الفخار بخطاء منحني ،في وضع القرفصاء أو وضع الجنين في بطن أمه علي جانبه الأيسر (الرأس ناحية والوجه ناحية) وبالقرب من موضع الرأس وفي بعض الأحيان في داخل التابوت الفخاري الضيق وفي ركن منة وضعت الأواني القيمة من الألبستر والشست ولوحات إعداد الكحل والأساور الحجرية أما الأواني الفخارية الضخمة بما كانت تحتوي عليه من خزين للمؤونة من طعام وشراب فكان مكانها القسم الثاني الملحق بالدفنة.

2- حفرة مبطنة بالطوب اللبن وليس لها مخزن خاص بالقرابين ،تحتوي علي تابوت صغير من الفخار بداخله الدفنة في وضع القرفصاء ،بينما وضعت أواني مختلفة الأحجام والأشكال حول التابوت الفخاري في الفراغات بينه وبين جدران الطوب اللبن .

3- حفرة بدون أي جدران من الطوب اللبن تحتوي علي تابوت من الفخار مشابه لرقم 1،2 السابقين داخلة الدفنة وأواني من الحجر الجيري قرب الرأس ،في حين وزعت الأواني الفخارية خارج التابوت .

4- أواني ضخمة من الفخار داخلها دفنات أطفال ومغطاة بأجزاء من أطباق فخارية .

5- دفنات داخل حفر مستطيلة يختلف اتجاهاتها عن السابقة والهيكل العظمي ممتد علي ظهره والرأس ناحية الغرب ،وجد في ساق أجداها خلخال من البرونز المتأكسد ،وربما من العصور المتأخرة .

والملاحظ أن الأواني والمقتنيات الأخرى تعد بالمئات ،ومعظم الأواني تحمل علامات (أكثر من 150 قطعة) ولكن المفاجأة الكبرى أن نعثر علي اسم الملك نعرمر بصورة واضحة علي أحد الأواني السليمة ومرة أخري علي قطعة فخار مكسورة،وفي الحالة الأولي كان اسم الملك داخل رسم واجهة القصر الملكي وفوقها رسم مكبر للصقر (يبدو كالسمكة البلطي) وفي الحالة الثانية نرى علامة الأزميل (مر) داخل واجهة القصر تعلو علامة أفقية عبارة عن رسم قديم لمقطع (نعر) أي السمكة ،ومن بين المائة والخمسين قطعة التي تحمل علامات مميزة بعضها عليها علامات واجهة القصر فقط.وتحت مجموعة المقابر هذه كشف عن جدار من الطوب اللبن في اتجاه شرق – غرب ينتمي إلي موقع سكني أقدم من المقابر ،وإلي جواره ست أواني مستطيلة من الفخار ومرصوصة إلي جانب بعضها البعض مما يوحي بأن هذا المكان كان يعد فيه أشياء يلزم لتخزينها أن تعبأ في هذه الأواني الضخمة المستطيلة ،بالإضافة إلي وجود بعض قواعد الصوامع الطينية وبقايا جدار آخر من اللبن ،وبقايا فرنين ،ولم نعثر بعد علي مقابر لأصحاب هذه الطبقة التي ترجع إلي المرحلة الأخيرة لعصر ما قبل الأسرات .

وفي حفائر موسم 1985 كشف عن 23 مقبرة مختلفة الأشكال في نفس المستوى الأعلى استكمالاً لعمل الموسم السابق في ذات الموقع وامتداداته :

منها اثنتا عشرة مقبرة من نوع صندوق الفخار ،ومزودة بكثير من الأواني الحجرية من الشست والألبستر والفخار ولوحات من الإردواز (الشست) لإعداد الكحل ،وبعض الحلي وخمس مقابر أطفال داخل أواني فخارية وأربع مقابر مبنية بالطوب اللبن ومقبرتان عبارة عن حفرتين، ودفنتان الهيكلان فيهما راقدان علي ظهريهما والأرجل ممتدة والأذرع أيضاً والرأس ناحية الغرب وإلي جوار أحد الجدران في الطبقة السفلي عثر علي ثماني آواني فخارية طويلة ومرصوصة إلي جوار بعضها وهي مقلوبة في بعضها ليكون جزءاً من جدار للمنطقة السكنية القديمة ،داخلها عدة أماكن بها آثار حريق لأفران ومواقد كانت تخدم أهل القرية.

وفي موسم حفائر 1988 استأنف الحفرة لفترة قصيرة من 21 مارس وحتى 9 أبريل في المربعات السابقة ،وهناك عثر علي بقايا جدران من الطوب اللبن تمتد تحت الأراضي الزراعية المسروقة من التل الأثري من قبل ونظراً لقرب المياه الجوفية من سطح الأرض فإن الحفر تم في ظل ظروف سحب المياه بالماكينات والعمل في الطين وفي المستوى العلوي عثر علي خمسة هياكل عظمية مستلقية علي ظهورها والرأس ناحية الغرب ،وإلي الشمال من إحداها بقايا لثلاثة أواني ،وهذه الدفنات عثر علي مثيلاتها في حفائر الموسمين 1984 ، 1985 .

وعثر علي 17 مقبرة في مستوي العصر العتيق أو عصر الأسرات الباكر وهي الأرقام 95 ـ 99 ـ 114 اثنان منها لأطفال داخل أواني فخارية 101 ، 108 والباقي ينتمي إلي الأنواع التي سبق وصفها في الموسمين 1984 ، 1985 ، ومعها أواني فخارية يحمل معظمها علامات ومعها حلي عبارة عن أساور من الشست وألواح الكحل وأواني حجرية اضطررنا لإيقاف العمل تحت ضغط فيضان المياه الجوفية.

وفي الموسم الرابع لحفائر جامعة الزقازيق سنة 1990 استأنف العمل 20 فبراير وحتى 16 مارس وفي الطبقة العليا ظهر 7 هياكل عظمية ممتدة علي ظهرها والرأس ناحية الغرب والأيدي ممتدة أيضاً بجوار الهياكل العظمية ، وأحدها رقم 119 يضع خلخالاً من الحجر في ساقه اليمني ، وليس معه أية قرابين .

أما طبقة العصر العتيق فكشف فيها عن 13 مقبرة ذات قرابين كثيرة ، اثنان منها لطفلين داخل إناءين من الفخار وباقي المقابر نختار منها الأنواع التالية كنماذج فقط :

المقبرة رقم 123 عبارة عن حفرة مستطيلة 167 × 87 سم ومحاطة بجدران من اللبن وحول بقايا الهيكل العظمي 27 قطعة من بقايا القرابين ما بين أواني فخارية وعدد من الأطباق والأقداح من الألبستر ولوحة لإعداد الكحل من الشست ، علاوة علي مجموعة من الخرز والتمائم ، وضمنها تميمة علي هيئة طائر الأبيس من الذهب .

المقبرة رقم 125 وهي حفرة مستطيلة 240 × 180 × 64 سم كانت محاطة ومبطنة ومغطاة بعناية بقوالب محروقة من الطوب 37× 23× 2 سم من جانب ، وإلي الناحية الجنوبية من المقبرة مخزن مخصص للقرابين 165× 26 سم محاط بجدران من الطوب اللبن ومغطي أيضاً بقوالب الطوب المحروقة ضمن مباني المقبرة ، وفي داخل المقبرة نفسها وفي مخزن القرابين 41 إناء ، ولم يعثر علي علامات تفيد أن السقف كانت تحمله أعمدة ، إلا إذا كانت عبارة عن دعامات خشبية محمولة علي سطح الأرضية المغطاة بقوالب الطوب المحروق السابق الإشارة إليها .

المقبرة رقم 127 وهي عبارة عن حفرة مستطيلة كبيرة محاطة بجدران من الطوب اللبن، والأرضية مغطاة بقوالب الطوب المحروق 32×17×3سم ، وفي داخل المقبرة وفي جميع جوانبها من حول الميت وضعت القرابين ، عبارة عن 65 قطعة ما بين آنية مكسورة من الفخار وثلاثة أواني من النحاس في حالة تأكسد كامل ومن خارج المقبرة يوجد بقايا أواني ، وقطع من عظام حيوان ، وبقايا إناء بداخله قطعة أخري من عظام حيوان .

أما بيانات الأربعة تمائم والخرز الذي عثر عليه في المقبرة رقم 123 علي صدر بقايا الهيكل العظمي فهي كالآتي: جعران جسمه مستطيل وظهره محدد بالخطوط التي تقسم الصدر عن الأجنحة ، وبطنه أملس من حجر الحية الأخضر (؟) ومثقوب بطول الجعران لينتظم ضمن العقد ، وتميمة علي هيئة ذبابة مثقوبة أيضاً علي طول جسمها من حجر أخضر داكن ، وتميمة علي هيئة طائر الإيبس من الذهب بساق واحد. وهي من الحالات النادرة من هذا المكان ومن العصر العتيق . وتميمة رابعة لعلها علي هيئة صقر مجنح من العقيق .

الخلاصة:

إن تل كفور نجم عاصر عمليات إزالة طبقات عديدة وحفائر عفوية غير منظمة وسرقة أتربة وعمليات حفر بغرض السرقة مما أضاع معالم طبقات العصور التالية لطبقة العصر العتيق الموجودة حالياً . أما الهياكل العظمية التي عثر عليها فوق طبقة العصر العتيق فمشكوك في تاريخها ، ولها دفنات حديثة نسبياً ، بصرف النظر أن إحداها عثر علي خلخال من الحجر في ساقها .

وحفائر د. بكر في التل الأثري ما هي إلا صرخة استغاثة لإنقاذ هذا الموقع الهام من الاندثار تحت الأرض الزراعية ثم تحت الامتدادات السكانية نتيجة للكثافة السكانية في المستقبل القريب .

إن الموقع الهام لتل كفور نجم علي الجانب الغربي للفرع التانيتي في شرق الدلتا وفي منطقة زراعية خصبة جعلها مقراً ومركزاً إدارياً مهماً منذ العصر العتيق ، مما دعي إلي تواجد موظفين تابعين للقصر الملكي متخذين لهم مساكن لائقة ، ومقابر غنية عثر فيها علي أواني تحمل اسم الملك نعرمر وحلي ذهبية .